محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني

النزاع بينهما وبعض وجوهه الجغرافية(١)

من رأي بارّو Barrault ودافيزيى Davisiès ان النزاع بين محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني كان نزاعاً قوميًّا بين العرب والترك(٢) .هذان الكاتبان يريان ان محمد علي كان يدافع عن العرب المستبدّ بهم الذين عزموا عزماً قاطعاً على ازاحة نير الاتراك عن اكتافهم كما فعل اليونان والصربيّون قبلهم .فالمصري العربي في رأيهما كان يحارب للحصول على حريته واستقلاله . ويقابل هذين الكاتبين كثيرون من الكتاب الذين يؤكدون ان محمد علي باشا كان تركيًّا وانهُ كان يريد ويتمنى ان يبقى واليًا من ولاة السلطنة التركية(٣)

على ان اكثر المظان التاريخية التي تبحث في هذا النزاع لا تشير اليهِ كنزاع قوميّ بين محمد علي باشا والسلطان . وهذه الاكثرية تتألف من الاوربيين الذين استخدمهم محمد علي في مناصب حكومتهِ المختلفة ومن ممثلي الدول الاوربية في مصر وكل المؤرخين الوطنيين تقريباً . فرجال في مقام هؤلاء من حيث المعرفة والاختلاف في وجوه النظر كان ينتظَرُ منهم ان يلاحظوا الوجهة القومية في هذا النزاع لو كانت موجودة و يدونوا ما يعنُّ لهم بشأنها.ومما لهُ شأن تاريخي في هذا البحث الاوامر التي اصدرها محمد علي الى رجال الشرطة في القاهرة والاسكندرية بين سنة ١٨٣١ وسنة ١٨٣٣ . كان الحصار لا يزال مضروباً على عكاء حينما دبّرت فتنة ضد محمد علي في القاهرة فبلغهُ امرها قبل حدوثها واصدر اوامر شديدة الى رجال الشرطة ليقبضوا على كل المشاغبين و يرموهم في غياهب السجون . ثم اضطرّ ان يفتك ببعض الذين تحوم عليهم الشبهات تحت ستار الليل

(١) المحاضرة التي اعدها بالانكليزية الدكتور اسد رستم احد اساتذة التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية وتلا خلاصتها في القسم الخامس من المؤتمر الجغرافي الدولي ثم دعته الجمعية التاريخية المصرية فتلاها فيها كاملة

(٢) Revue des deux mondes, 1835I,458; 1839,2,619. also Lucien Davisiès de Pontès, Etudes sur l'Orient et l'Egypte Paris 1855, p. 205

(٣) من هؤلاء جيرارد ان في Revue des deux mondes 1840,3,642 راجع ايضا Robinson. Biblical Researches 1,22-28

قبل ان قضى على ما بين سكان القاهرة من ميل الى الثورة(٤) . ولم يؤذن لاحد من المصريين في الاسكندرية ان يتحدث عن احوال حملتهِ السورية

واذا اخذنا بما يقولهُ نوفل نوفل الطرابلسي فمحمد علي باشا لم يسمح للمصريين ان يذكروا اسم عكاء في احاديثهم(٥). فلو ان سكان القاهرة والاسكندرية كانوا حقيقة يبغضون الحكام الاتراك لما فتنوا عليهِ

ولنا في موقف المصريين ازاء الخدمة العسكرية في وادي النيل آنئذٍ شاهد آخر على بطلان قول بارّو ودافيزي . فكثيرون من الشبان المصريين ذرّوا الزرنيخ في عيونهم حتى يفقدوا بصرهم لكي يتملصوا من الخدمة العسكرية الاجبارية . ومنهم من قطع سبابة اليد اليمنى او قلع اسنانهُ او بتر ذراعهُ ومئات من الفلاحين هربوا الى سورية فراراً من الجندية (٦) . فلو ان الوطنيين المصريين كانوا يحاربون في سبيل حريتهم واستقلالهم القومي سنة ١٨٣١ وسنة ١٨٣٢ لكانوا تصرفوا غير هذا التصرف حين مسّت حاجة البلاد اليهم

وزد على ذلك ان حركة قومية عربية في مصر وسورية منذ مائة سنة كانت مخالفة كل المخالفة لاتجاه الفكر الشرقي في ذلك الحين . فالعصر الذي وجد فيهِ محمد علي كان كالعصور الوسطى من كل وجوههِ يعتقد فيهِ الناس ان الحياة على الارض ليست سوى مقدمة وجيزة للحياة الحقيقية المقبلة وكانت غاية الناس التأكد من الوصول الى الجنة والخلاص من النار . كان الاسلام في ذلك الزمن اقوى العوامل الاجتماعية في الشرق وكل اتباعهِ من عرب وترك وغيرهم سواء فيهِ . نعم كانت لغة بعض المسلمين تركية ولغة البعض الآخر عربية ولكن ذلك لم يجعل الاولين اتراكاً ولا الآخرين عرباً لان الاسلام كان يجمع بينهم . لذلك نرى ان الشرق الذي عاش فيهِ محمد علي لم يكن النظر فيهِ الى اعتبار قومي او جنسي او دولي بل الى الاعتبار الديني وفي ذلك لم يُفرّق بين قومية وأخرى في الاسلام . على اننا لا نريد بهذا القول ان المسلمين في الربع الاول من القرن التاسع

---

(٤) J.A.St. John, Egypt and Mohammed Ali (London Ed.) 1834, II. 492.

(٥) مخطوطة كشف اللثام لنوفل نوفل الطرابلسي ص ٤٦٩ . هذه المخطوطة في مكتبة جامعة بيروت الاميركية

(٦) St John, Egypt & Mohammed Ali, I, 189-192

عشر لم يحارب بعضهم بعضاً بل نريد ان نوضح ان عوامل الفصل والاتحاد في المسائل السياسية والحربية لم تكن جنسية ولا قومية (٧)

اضف الى ذلك ان العوامل التي حركت النهضة القومية العربية لم تكن قد بدأت تؤثر في العالم العربي حينئذٍ فمن الجهة الواحدة لم يكن التركي قد بلغ من الشعور بتفوقهِ على سائر الشعوب في السلطنة التركية ماحرّك في صدور العرب الامال القومية التي تدور على كل الالسن في سوريا وفلسطين والعراق الآن. ومن الجهة الثانية كانت وسائل الانتقال والتعليم قليلة ودرس مفاخر العرب ومجدهم الغابر كان لا يزال في بدئهِ فلم يجد العرب حينئذٍ ما يخرجهم من دائرة قراهم الضيقة و يجعلهم يشعرون انهم ابناء وحدة قومية عربية عظيمة. ولا يزال في سورية كثير من الشيوخ الذين لم يتعدوا حدود القرية التي ولدوا فيها

فمن المحتمل ان النزاع بين محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني لم يكن نزاعاً بين جنس وجنس فعلينا ان نبحث عن اسباب اخرى بعثت عليهِ. و يظهر لي ان بارو ودافيزيى كانا غير عارفين بالحياة الشرقية وفلسفتها في وقت هذا النزاع حين كتبا ما كتباهُ في هذا الموضوع. كلاهما عاش في عصر كانت القومية اقوى عناصرهِ في اوربا وقد تكون الثورات التي نشبت حوالي سنة ١٨٣٠ جعلتهما ينظران الى الشرق نظراً متأثراً بالنهضة القومية في اوربا

***

وهناك جماعة اخرى من الكتاب يرون ان محمد علي كان في الراجح يجتهد ليحلّ محلّ السلطان محمود الثاني في مقام السلطنة والخلافة. وهؤلاء لا يعبأ باقوالهم كثيراً (٨) لانها كلها تقريباً ترجع الى جريدة المونيتور العثمانية (سنة ١٨٣١ — ١٨٣٣) او تستند على تصريحات لوزراء ولسفراء اتراك. فاذا لم نجد ادلة اقوى من تأييد هذا الرأي اضطررنا ان نحسب هذه الاقوال والتصريحات دعوة (بروبغانده) سرية نشرت لبيان تبعة محمد علي في هذا النزاع وبراءة السلطان محمود الثاني. ولقد عرفنا اثناء الحرب الكبرى شيئاً

(٧) طالع ما قاله محمد علي في هذا الصدد ونشر في Recueil des Traités de la Porte Ottomane II, 361-362 الذي وضعه البارون دي تستا. ولاحظ كيف محمد علي باشا يستعمل لفظتي «مسلم» « وقومية »

(٨) من هؤلاء كاهوي في كتابه « المسالة الشرقية » ص ٧٩ ومربوط «المسالة الشرقية » ص ٢٠٣ — ٢٠٤ وسينيوبس « اوربا المعاصرة »

عن البروبغانده الرسمية واطلعنا على مجلدات ضخمة تحوي اوراقاً رسمية نشرتها الدول المتحاربة لتأييد مقاصدها الخاصة . على ان المؤرخين لا يستطيعون ان يكتبوا كتباً علمية اذا اعتمدوا على الاوراق الرسمية التي تنتقى دون غيرها لتستعمل في نشر الدعوة

اضف الى ذلك ان محمد علي باشا انكر مراراً سرّاً وعلانية ميلهُ الى اسقاط السلطان الخليفة عن عرش الاستانة. وحدث في دمشق سنة ١٨٣٢ ان احد ائمة المدنية ضُرب بعد ان فتحها المصريون بساعات قليلة لانهُ رفض ان يدعو للسلطان محمود الثاني . وقد قال ابرهيم باشا اثناء حملتهِ في اسيا الصغرى (سنة ١٨٣٢ — ١٨٣٣) « ان ابي لا يزال العبد الخاضع للسلطان والمحامي عن الدين الحنيف » (٩) واكد محمد علي للكولونل هودجس سنة ١٨٤٠ اخلاصهُ لعرش الاستانة قائلاً ما ترجمتهُ « اما من حيث تأييد العرش التركي فمن اكثر مني حمية في ذلك . ان الشعب الملتف حولي يثور عليّ اذا حاولت ان اقلب ذلك العرش» (١٠) وزد على ذلك ان معظم المظان التاريخية التي لم ينتمِ مؤلفوها الى احد الطرفين المتحاربين اما انها لا تذكر شيئاً عن نية محمد علي على قلب السلطان او انها تعارض في جعل هذا السبب سبباً للنزاع بين التابع والمتبوع . هاك ترجمة ما جاء في ولكنسن « لا اجد سبباً يثبت لي ان محمد علي كان يفكر في اغتصاب عرش الاستانة وما من احد يعرف شدة غيرة الاتراك على حقوق اسرتهم المالكة ويستطيع ان يصدق نية محمد علي على التلقب بلقب سلطان ». (١١) والظاهر ان السياسي الشهير البرنس مترنخ كان من انصار هذا الرأي فقد قال في احدى رسائلهِ الى نومان في ١٥ فبراير سنه ١٨٣٣ « ان اعمال محمد علي ليست متجهة الى قلب العرش التركي في الاستانة » اضف الى ذلك ان محمد علي باشا كان على جانب كبير من الدهاء السياسي فعرف انهُ لا يستطيع التغاضي عن مقاومة الدول الاوربية الكبرى اذا اراد ان يبدّل الحالة الراهنة في الاستانة. نعم كان الجيش العثماني بقيادة راشد باشا قد اختل نظامهُ بعد انكسارهِ في معركة قونية وكثيرون من فلاحي الاناضول كانوا موافقين على مهاجمة السلطان في قصرهِ ولكن محمد علي عرف ان عملاً كهذا ليس من الحكمة في شيء ووقف على مقربة من الاستانة لانهُ كان

(٩) St. John, Egypt & Mohamed Ali, II,522

(١٠) A.A. Paton History of ths Egyptian Revolution etc. (LondonEd.) 1870 II. 168-169

(١١) J.G.Wilkinson, ModernEgypt & Thebes(Ed.1843)II, 551.

قد ادرك في سنة ١٨٣١ بل وقبل ذلك في سنتي ١٨٢٤ و١٨٢٦ الخطة التي تسير عليها بريطانيا العظمى في احوال كهذه (١٢)

يتجلى لنا مما تقدم حقيقتان الاولى ان النزاع بين محمد علي والسلطان محمود الثاني لم يكن قوميًا ولا جنسيًا والثانية انهُ لم يثبت لنا عزم محمد علي على الحلول محل السلطان على عرش الاستانة فماذا كانت غايتهُ من حروبهِ ؟ واذا لم يطمع بالجلوس على عرش الاستانة فهل كان يرمي الى اقامة عرش لهُ في وادي النيل ؟ هنا يضيع الباحث بين الادلة الكثيرة المتناقضة

فلقد ثبت لدينا من الجهة الواحدة ان محمد علي كان طموحًا يجاهد للحصول على الشهرة والمقام وكثيراً ما كان يذكر مقدونيا والاسكندر الذي كان مثلهُ المحبوب حتى قال في احد الايام « كلانا من فيلبي » (١٣) وكان يميل الى ربط مصيرهِ بمصير نبوليون ويكثر من الاشارة الى انهُ ولد ونبوليون في سنة واحدة (١٧٦٩) (١٤) واحب ان يتشبه بيوليوس قيصر ونبوليون بكتابة مذكراتهِ (١٥) . ان طموحًا كهذا الطموح الذي لا حدَّ لهُ يدفع بالناس الاقوياء في الاحوال الملائمة الى السعي وراء الاستقلال

وزد على ذلك لقد ثبت ان محمد علي بدأ يذكر الاستقلال في احاديثهِ حوالي سنة ١٨٢٥ . وقد اثبت الجنرال بوير ما قالهُ لهُ محمد علي باشا حينما تكلم على امنية الاستقلال هذه . والعبارة التالية من رسالة ارسلها الجنرال بوير الى الجنرال بيار في ١٨ يوليو سنة ١٨٢٥ قال فيها ما ترجمتهُ «اسهبت اليك في كتاب سابق عما يتعلق بانتصارات ابرهيم باشا في بلاد اليونان واودّ ان اطلعك الآن على حديث سرّي دار بيني و بين محمد علي باشا اطلعني في خلالهِ على امانيهِ قال (اي محمد علي) «انا اعرف ان السلطنة التركية تسير يومًا فيومًا الى الردى . وانهُ ليصعب عليَّ ان انشلها مما هي فيهِ فلماذا احاول المستحيل بوسائلي القليلة ؟ على اني سأقيم على انقاضها مملكة كبيرة ولديَّ كل الوسائل التي تساعدني على الفوز . اني استطيع ان افتح عكاء ودمشق وبغداد بكلمة واحدة مني و بواسطة مقدرتي وجيوشي . وابني المنتصر سيتوجهُ في اقل من سنة ليحقق مناماتي على ضفاف دجلة

(١٢) مراسلات الجنرال بيار والجنرال بوير في نشرات الجمعية الجغرافية الملكية المصرية الخاصة . القاهرة ١٩٢٣ ص ٥٠ — ٥١

(١٣) P.et H.,L'Egypte sous la Domination de Mehemet Ali Paris 1877, 29. Revue des deux mondes 1847,2,303

(١٤) P.Mouriez,Histoire de Mohamed Ali (Paris 1855-57)1,53

(١٥) St. John Egypt& Mohamed Ali I,54-55

والفرات لانها حدود ثابتة للدولة التي اريد انشاءها وستمكنهُ شجاعتهُ العظيمة من الفوز (١٦)
وكتب الجنرال بوير ثانية الى الجنرال بيار في ٢١ فبراير سنة ١٨٢١ ما يأتي « في السير على خطة كهذه سيحقق محمد علي مقاصدهُ ويصل الى غايتهِ المنشودة وهي انشاء سلطنة على انقاض سلطنة متبوعهِ (١٧) . وهاك ما كتبهُ احد الكتاب الانكليز المعاصرين لمحمد علي قال « لقد اعرب محمد علي لانكلترا وفرنسا والنمسا سنة ١٨٣٣ عن خطتهِ في تحويل سلطتهِ كاحد ولاة الباب العالي الى ملك وراثي مستقل (١٨) » وكتب اللورد بومرستون في احدى رسائلهِ الى الكولونل كامبل ما ترجمتهُ « اريد ان اطلعك انهُ وصل الى حكومة جلالة الملكة من نواحٍ مختلفة تقارير تبين ان الباشا (محمد علي) ينوي الانتقاض على سيادة السلطان وان يعلن استقلالهُ (١٩)

وعلى الضد من ذلك نستطيع الاستشهاد باقوال موثوق بها تؤيد رأيًا يناقض الرأي المتقدم . فقد اعلن محمد علي غير مرة للساسة انهُ لم ينو قط انشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل قال « ان النزاع الذي نشأ لسوء الحظ بيني وبين الباب العالي لم يكن سببهُ طمع غير مشروع ولا تدابير مفسدة لتقسيم السلطنة » (٢٠)

ازاء هذا التناقض الظاهر في الاوراق السياسية الرسمية والمظان التاريخية نجد ان ما عرفناهُ لا يكفي لاثبات احد هذين الرأيين او معرفة ايهما اقرب الى الصواب . وما بقي من المراسلات السياسية التي دارت بين كبار رجال السياسة في ذلك العصر لا يزال بعيداً عن تناول الباحثين في هذا الموضوع لذلك لا نستطيع الحكم فيهِ . فلا نقدر ان نثبت نية محمد علي على الاستقلال ولا ان ننفيها

ولحسن الحظ لدينا من الاسباب التي بعثت على النزاع بين محمد علي والسلطان محمود غير ما تقدم . فالظاهر ان غريزة الدفاع عن النفس كانت في مقدمة الاسباب التي حملت التابع على محاربة متبوعهِ . لان محمد علي كان لديهِ ما يبعثهُ على الاعتقاد بان السلطان محموداً لا ينوي ابقاءهُ في منصب الولاية الذي اعترف لهُ بهِ سنة ١٨٠٥ ! ففي سنة ١٨٠٦

(١٦) Correspondance des Generaux Beillard et Boyer , p.50
(١٧) Correspondance des Generaux Beillard et Boyer ,.p.107
(١٨) Quarterly Review Vol 67.. p.276
(١٩) British Parliamentary Papers, June 1838
(٢٠) ثلاث رسائل لولكنسن على سياسة انكلترا مع الباب العالي ومحمد علي

اراد السلطان ان ينقل محمد علي الى سلانيك[٢١] وسنة (١٨١٣ — ١٨١٤) حينما كان محمد علي يحارب الوهابيين في بلاد العرب عيّن السلطان لطيف باشا ليحل محلهُ والياً على مصر[٢٢] وسنة ١٨٢٩ حاول السلطان ان يفرق بين محمد علي وابنهِ ابرهيم باشا فعين الاخير والياً على مكة وهو اعظم منصب في السلطنة التركية . وسنة ١٨٣٠ اشار السلطان على محمد علي ان يترك الاسكندرية ودمياط ورشيد ليتسلم حكمها قبودان باشا خصم محمد علي الشخصي[٢٣] . وجاء فيما كتبهُ بوجولات ان السلطان محمود حاول ان يسمّ محمد علي فاهدى اليهِ مرّية جركسية لتدس لهُ السمّ[٢٤] . وقد ايّد الجنرال بوير هذا الرأي في تعليل سياسة الباب العالي في مسألة مصر فكتب في احدى رسائله الى الجنرال بيار في ١٠ اغسطس سنة ١٨٢٥ ما ترجمتهُ . « واذا نكب ابن محمد علي او فشلت حملتهُ فكيف يواجهُ محمد علي الباب العالي صاحب القوة الغشوم الذي يغار من نجاح ولاتهِ حتى ليثأر منهم حين يقلب لهم الدهر ظهر المجن[٢٥] . وفي الصفحة ١٠١ من هذه المراسلات التي نشرتها الجمعية الجغرافية الملكية المصرية يقول الجنرال بيار « غاية الباب العالي ان يحمل نائبهُ على استنفاد ثروتهِ واضعاف جيوشهِ ورعيتهِ حتى يتغلب عليهِ » . ومن قبل كان السلطان محمود قد بطش باعيان الاناضول وولاة بغداد ويانينا . وحملهُ انتصارهُ على الانكشارية على تهديد محمد علي تهديداً لم يكن مجهولاً بين سكان الاسكندرية[٢٦] وزاد على مقاومتهِ هذه لمحمد علي ان عيّن خسرو باشا عدوهُ القديم صدراً اعظم

فيتبين مما تقدم ان محمد علي في نزاعهِ مع السلطان محمود كان يحارب للمحافظة على ثروتهِ ومنصبهِ ومقامهِ ومن المحتمل انهُ كان يحارب للمحافظة على حياتهِ ايضاً

---

(٢١) Paton, Egyptian Revolution, II. 22 ; Quarterly Review 67, 407

(٢٢) P. et H. L'Egypte sous la Domination de Mehemet Ali, 7 ; Wilkinson Modern Egypt. etc. II. 534

(٢٣) Spectator 1840, 1057 ;

(٢٤) Athenaeum 1835, 69 ;

(٢٥) مراسلات الجنرال بوير والجنرال بيار ص ٥٨ — ٥٩

(٢٦) St. John, Egypt & Mohamed Ali II, 483